بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

وسورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ﴾

﴿ الر ﴾ ارجع لشرح الحروف المقطعة فى بداية سورة البقرة ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ قال الزمخشرى: [تنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل فى كونه كتابًا، وآيات قرآن مبين].

* * *

﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٢) ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٣) وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم (٤) ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون (٥) ﴾

ربما يجىء الوقت الذى فيه يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. يخاطب الله المصرين على الكفر، فكأنه يقول لهم تخلوا قليلاً عن ذلك، وفكروا أنه يمكن أن تتحسروا وتلوموا أنفسكم على كفركم، يوم تبعثون للحساب. وربما تدخل على الفعل الماضى، فأفادت هنا التأكيد، فيصير المعنى أن الكافرين سيودون لو كانوا مسلمين. ثم يتحول الخطاب للرسول (ﷺ): اتركهم يا محمد لما اختاروا لأنفسهم بإصرارهم، يأكلون كما تأكل الأنعام ويلهون فى الدنيا

(*) إلا الآية ٨٧ فمدنية.

الفانية حتى يأتيهم يوم الحساب ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ كل القرى السابقة التى هلكت بعذاب الاستئصال أو بغيره، حددنا أجلها فى اللوح المحفوظ، ولكل أمة أجل لا تتقدم عنه يومًا ولا تتأخر.

* * *

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾

اتهم الكافرون محمدًا (ﷺ) بالجنون، ثم قالوا تكبرًا وتعنتًا: لو كنت صادقًا فى رسالتك، فأتنا بالملائكة، فأجابهم سبحانه وتعالى ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ ما ينزل رب العالمين ملائكته إلا لإحقاق الحق، وليس لعبث العابثين ولا استجابة للكافرين، فإذا أنزلوا وأنتم على هذا الكفر فلن تؤمنوا، وحينئذ ﴿ مَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ فما كان لإهلاك هؤلاء الكافرين من تأجيل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الله هو الذى أنزل ﴿ الذِّكْرَ ﴾ القرآن، وهو الذى يتولى حفظه، بدون تغيير، سواء تحريفًا أو زيادة أو نقصانًا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) ﴾

لقد أرسلنا من قبلك رسلاً فى الأمم السابقة، وكل رسول بعثناه استهزءوا به وسخروا منه مثلما تعمل قريش والعرب ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ كما شرحنا صدور المؤمنين الذين سعوا إلى الهدى بالقرآن، أدخلنا الباطل فى قلوب المتكبرين الجاحدين، فلا ولن يؤمنوا به ـ وراجع فى ذلك الآية ١٤٦ من سورة الأعراف ـ ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ وقد مضت السّنة فيهم بهلاكهم ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ فراح هؤلاء المكذبون يصعدون فى

السماء ـ فإذًا لقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ فقدنا الإبصار[1] ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أصابنا محمد بسحره.

* * *

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨)﴾

جعلنا فى السماء منازل للشمس، وللقمر والنجوم التى تزين السماء، وتنيرها والأرض للناظرين، وحفظ الله السماوات ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ من كل شيطان مطرود من رحمة الله ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فإذا حاول أحد الشياطين أن يتسمع أخبار الملأ الأعلى، انقض عليه شهاب ظاهر للمبصرين. قال المراغى: [. . . فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئًا من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام، فسُلطت عليهم الشهب المشتعلة، والنجوم المتقدة، فأحرقتهم، ولانبحث عن معرفة كنه ذلك، ولا نُمعن فى النظر، لندرك حقيقته؛ لأنا لم نؤت من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة تجعلنا نؤمن به إيمانًا مبينًا على البرهان بوسائله المعروفة، وليس لنا إلا التصديق بما جاء فى الكتاب وأُوحى به إلى النبى الكريم].

* * *

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)﴾

بسطنا الأرض وألقينا فيها جبالاً راسيات لئلا تهتز بكم عند دورانها، وأنبتنا فيها من كل ما تجدون ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ بمقدار وحكمة وبميزان دقيق، وجعلنا فيها أرزاقًا لكم ولجميع الكائنات التى لستم برازقيها، وكل ما فى الكون عندنا خزائنه، وننزله عليكم بكميات مقدرة بحكمتنا، وحركنا الرياح لتحمل اللقاح إلى النبات، وتلقح السحاب بماء

(١) قال زغلول النجار فى تفسيره: إنه بعد ارتفاع ٢٠٠ كم من سطح الأرض، هناك ظلمة شاملة، من يصعد إليها لا يرى شيئًا.

المطر الذى يستقى منه كل ما فى الكون من بشر وحيوان ونبات ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ وليس لديكم خزائن الله، سواء كانت أرزاقًا عامة، أو ماء الأمطار، أو غير ذلك.

* * *

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾

الله وحده هو الذى يحيى ويُميت، والله وحده يبقى بعد فناء الخلائق، فهو خالق الموت والحياة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) ﴾ تعددت أقوال المفسرين، فمنها: من سبق من الأفراد ومن تأخر، وما سبق من الأمم وما تأخر، ومن تقدم بالإيمان وعمل الصالحات، ومن تأخر فى ذلك، ويمكن أن يكون المقصود كل ذلك، وكل ذلك يعلمه الله ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ يحشرهم للحساب والله ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ له حكمة فى كل ما يفعل، عليم بكل شىء ـ ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤].

* * *

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ ﴾ من طين يابس كالفخار ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ طين أسود متغير ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ قابل للتشكيل والتصوير ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ من نار قاتلة، وقال الزمخشرى: [نار الحر الشديد النافذ فى المسام]، ثم تحكى الآيات قصة الخلق حين قال الله لملائكته إنه خالق بشرًا، فإذا سواه إنسانًا بعد أن كان طينًا وبث فيه روح الحياة، أمر الملائكة بالسجود له، فسجدت الملائكة سجود تكريم لا سجود عبادة ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ رفض وتكبر أن يسجد لبشر خلقه الله من طين، فقال متكبرًا: عنصرى أفضل من عنصره، خلقتنى من نار وخلقته من طين.

* * *

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾

عندما أبى إبليس السجود لآدم طرده رب العالمين قائلاً: إنك مطرود من رحمة الله مرجوم بالعقاب، وملعون إلى يوم الدين، فقال إبليس أمهلنى إلى يوم البعث، فأجابه الله إلى طلبه، فرد قائلاً ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال الطبرى: [بإغوائك (لى)]، بينما قال الزمخشرى: [المعنى: أقسم بإغوائك إياى لأزينن لهم. ومعنى إغوائه إياه: تسبيبه لغيه بأن أمره بالسجود لآدم، فأفضى ذلك لغيه، وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله برىء من غيه] ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأحسنن لآدم وذريته المعاصى والآثام، ولأحملنهم جميعًا إلى طريق الشر والضلال ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ لك، قال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذه سنتى فى البشر، وهذا طريق علىَّ أن أراعيه، وطريق إلىَّ مستقيم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ عبادى الطائعون ليس لك سيطرة عليهم، إلا الذين اتبعوا طريقك باختيارهم، وأولئك داخلون جهنم من أبوابها السبعة، لكل باب طائفة مختصة به حسب شرورها.

***

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)﴾

أما الذين اتقوا الله فى الدنيا، فتنتظرهم جنات وعيون من الماء، يدخلهم رب العالمين إليها بسلام وأمان، بعد أن طهر صدورهم من غل الدنيا، يتمتعون فى الجنة على سرر متقابلة، لا يتعبون فيها ولا يُخرجون منها.

***

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤)﴾

أخبر يا محمد عبادى أنى غفار لمن تاب وآمن، وأنا الرحيم، وفى نفس الوقت أعذب الجاحدين بعذاب موجع أليم، وأخبرهم عن ضيوف إبراهيم حين دخلوا عليه فى بيته وحيوه بالسلام، فقال إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون ـ حين امتنعوا عن الأكل من طعامه ـ فقالوا: لا تخف، ونحن نبشرك ﴿بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ ـ وهو إسحاق (عليه السلام)؛ لأن إسماعيل (عليه السلام) كان مع أمه فى مكة ـ فتعجب من بشراهم؛ لأنه قد بلغ من الكبر عتيّا!

***

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾

قالت الملائكة إنما نبشرك بالحق فلا تكن من اليائسين من رحمة الله، فأجابهم إبراهيم (عليه السلام): وهل يقنط من رحمة الله إلا الضالون؟! ثم سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم وغرضكم من زيارتى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط (عليه السلام) ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾ استثنوا أسرة لوط من العذاب، إلا زوجته فقد حكم الله عليها فى ﴿الْغَابِرِينَ﴾ الباقين مع الهالكين؛ لأنها كانت تعين قوم لوط.

***

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾

فلما جاءت الملائكة إلى لوط (عليه السلام) قال لهم بفزع: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ غير معروفين لنا، قالت الملائكة: لا تخف إنا جئنا بالحق فيما كانوا يتشككون فيه من نصحك ومن إنذارك لهم بعقاب الله إن لم يستقيموا ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ اخرج بأهلك من هذه القرية الظالم أهلها فى

الليل ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ كن من خلفهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ لا ينظر أحد منكم خلفه ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ واذهبوا إلى المكان الذى يأمركم الله بالهجرة إليه، فارين بدينكم، وأوحينا إلى لوط أن هؤلاء القوم سيتم استئصالهم ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ وقت دخول الصبح.

* * *

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

وصل خبر ضيوف لوط (ﷺ) إلى أهل المدينة، وقد كان للملائكة سمت جميل، فجاءوا مهرولين فرحين طامعين فيهم، عندئذ قال لوط ﴿ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ بالإساءة إليهم بفحشائكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ خافوا الله ولا تجلبوا علىَّ الخزى والعار ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فإذا بهم يتحدونه قائلين: أولم ننبه عليك بعدم حماية الناس؟ وبعدم التعرض لنا؟ قال لوط: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ إن كان ولا بد فتزوجوا من بناتى، هذا أفضل من الفاحشة ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أقسم الله بحياة النبى (ﷺ) إنهم فى ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون عن الرشد ويتحيرون ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ بإنزال عذاب الاستئصال ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ فى وقت الشروق ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ قلبنا المدينة رأسًا على عقب ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ وأنزلنا عليهم الحجارة كالمطر طينًا متحجرًا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ فى ذلك آيات لطالبى العبر المتفرسين ـ وجاء فى الحديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم تلا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾ رواه الترمذى ـ ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ وهى فى طريق قائم بين شمال الحجاز والشام يشاهدها الذاهبون والآيبون ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ

﴿الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٤)﴾

وتستمر الآيات تذكر بأقوام كذبت الرسل مثل ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أصحاب الشجر الملتف، والمقصود قوم شعيب (عليه السلام) الذين قطنوا منطقة كثيفة الأشجار، قريبة من مدين قرية شعيب، وكانوا يطففون المكيال والميزان، أرسل الله شعيبًا (عليه السلام) لهم فكذبوه وكانوا ظالمين ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأهلكناهم ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ موقع كلٍّ من قرية لوط وقرية أصحاب الأيكة واضح على طريقكم بين شمال الحجاز والشام ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح (عليه السلام) الذين كذبوه، فكانوا بتكذيبه مكذبين لإرسال الله الرسل ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وبينا لهم آياتنا على صدق رسالة صالح، وما الناقة إلا إحدى هذه الآيات التى فصلها القرآن، والسياق يتحدث عن آيات أعرضوا عنها، أى جحدوها، مما قد يُفهم منه أن تلك الآيات كانت قبل الناقة، ثم جاءت الناقة ومعها عذاب الإهلاك لما عقروها؛ إذ يبعد أن يكون عقر الناقة هو المقصود بالإعراض، والله أعلم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ كانوا يسكنون فى الجبال بعد أن ينحتوا مساكنهم فيها، ليأمنوا شر اللصوص والمغيرين، أو ترفًا ورفاهيةً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فصعقتهم صيحة عذاب الاستئصال، التى تبعتها الرجفة والإهلاك وقت الصبح ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وما دفعت أعمالهم ولا مساكنهم ولا أموالهم عنهم الهلاك.

***

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾

ما خلقنا السماوات بكل ما فيها، والأرض بكل ما عليها وكل ما هو مدفون فيها، وما بينهما إلا بميزان الحق، فكل ما فى الكون يعمل بقوانين الله، يسجد له طوعًا أو كرهًا، ويشهد له بالوحدانية، ويوجه أصحاب العقول والقلوب لعبادته حتى تأتى الساعة ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فاصفح يا محمد الصفح الذى ليس فيه لوم ولا منة، فإن ﴿رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ

﴿الْعَلِيمُ﴾ خلق الكون كله ويعلم كل ما فيه ـ ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] ـ ويكفيك أنا أنزلنا عليك يا محمد ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى السبع المثانى، وأرجحها قول الطبرى: [أولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال: السبع اللواتى هن آيات أم الكتاب (الفاتحة) لصحة الخبر بذلك عن رسول الله (ﷺ)]، وسميت مثانى لأنها تُقرأ على الأقل مرتين فى كل صلاة ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ لا تنظر نظرة تمنٍّ أو غبطة لمن كان حظه من الدنيا ركامها الفانى؛ فإن الله قد يغدق على الكفار والمشركين؛ لأنه يعطى الدنيا لمن يحب ولمن يكره، ولكنه يعطى الدين والآخرة لمن أحب، والخطاب للرسول (ﷺ) ولكنه موجه لأمته ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تحزن بسبب كفرهم ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أما فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، فكن لهم رحيمًا سهلاً ودودًا ـ لأن المؤمنين ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفى الحديث: «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة»، قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: «إذا كان يوم القيامة؛ قيل انظروا من أطعمكم كسرة وسقاكم شربة وكساكم ثوبًا فخذوا بيده ثم امضوا إلى الجنة» رواه الحسن ـ وقل للكفار والمنافقين: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ رسالة الله التى كلفنى إبلاغها لكم واضحة، وعملى ودورى فى البلاغ واضح، والكتاب الذى أنزله الله علىّ واضح، فأنا النذير المبين.

***

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

هذه الآية تشير إلى عذاب من يُقَسِّم القرآن، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض حسب أهوائه ومصالحه، فوصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أعضاء وأجزاء، آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ثم أقسم الله بذاته العلية ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمد لسوف يسألون فى الآخرة عما فعلوا فأجرموا فى حق الله وحق الرسل وحق الكتب، فمن ذا الذى يستطيع أن لا يأخذ قسم الله بذاته العلية مأخذ الجد؟!.

***

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾

بلغ رسالتك وادع إلى الله، ولا تلتفت للمشركين؛ فقد حكمنا أن نكفيك ونحميك من المستهزئين[1]، فغدًا يعلمون، ونحن نعلم أن صدرك يضيق من جحودهم فلا تأبه بهم، والزم التسبيح وأكثر من السجود لينشرح صدرك، وأحسن عبادة ربك حتى تلقى وجهه الكريم.

❊ ❊ ❊

(١) تروى كتب السيرة أن قادة الذين كانوا يستهزءون برسول الله (ﷺ) من طغاة قريش هم: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والحارث بن عيطل السهمى (ابن الطلاطة)، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، وعدى بن قيس، قد لقوا حتفهم جميعًا قبل بدر فى قول ابن عباس، وأصاب العمى الأسود بن عبد المطلب.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال بعض المفسرين أمر الله هو عقابه، وقالوا الساعة، وقالوا حكمه، وهو يجمع ما سبق، وقد جاء بصيغة الماضى لتحقق وقوعه، فلا تتعجلوا لأن كل آت قريب ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه رب العالمين عن الشركاء ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ ينزل الملائكة بالوحى الذى يُحيى به القلوب على من شاء الله من عباده لينذر الناس ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ اتقوا عصيانى الذى يجر عليكم عذابى.

***

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤)﴾

يذكرنا الله أنه خلق السماوات والأرض بميزان الحق، فكل ما فى الكون يعمل بقوانين الله، يسجد له طوعًا وكرهًا، ويشهد له بالوحدانية، بالطريقة التى تذكر الإنسان بخالقه، ويوجه أصحاب العقول والقلوب لعبادته ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبحانه وتعالى عن

(*) إلا آياتها الثلاثة الأخيرة فمدنية.

الشركاء، وتأمل أيها الإنسان أصلك، فقد خلقك الله من ﴿نُطْفَةٍ﴾ ثم سخر لك من يمدك بهواء تنفسك، وبمرقدك فى بطن أمك، وغذائك، وخلق فى أبويك الرحمة والمحبة اللتين يتعهدانك بهما حتى تكبر، ثم إذا بلغت سن الرشد والشدة، إذا بك يا أيها النطفة، تصير لمن خلقك ورباك ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ليس خصماً فقط، وإنما شديد الخصومة.

***

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

ثم تتوالى الآيات فى ذكر الأفضال الإلهية من أنعام، والأنعام تشمل الإبل والبقر والضأن والمعز، نستفيد من جلودها وأوبارها بعمل ملابس وأغطية وخيام وغير ذلك، وتحرث الأرض، ونأكل لحومها ونشرب ألبانها، ونستفيد من روثها بعمل الأسمدة، ونستخرج منها بعض الأدوية ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ يعلم مُنَزِّل القرآن النفس البشرية، وما يعتمل فى الصدور ـ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟ ـ وبين للإنسان أنه خلق له ما ينفعه من الأنعام، وإن إنسان عصر النبوة كان يجد جمالاً فى النظر لثروته من الأنعام، حين تعود إلى حظائرها، وحين تخرج فى الصباح، وسيأتى فى الآية بعد التالية ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ التى يدخل تحتها ما أبدعه العقل البشرى بما أودعه الله من إمكانيات، وبناء على قوانين الطبيعة التى سخرها الله له، من قطارات إلى سيارات إلى طائرات... إلى ما سيأتى بعد ذلك، وحتى يرث الله الأرض وما عليها، وكما أحس إنسان عصر التنزيل بجمال ثروته من الأنعام، مازال يحس بها إنسان القرن الواحد والعشرين، سواء كانت ثروته من نفس الأنعام، أو دخلت تحت آية ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من سيارات وسفن وطائرات ومركبات فضاء، وما إلى ذلك. وتحمل أمتعتكم الثقيلة وبضائعكم من مكان إلى آخر ومن بلد إلى آخر لم تكونوا تستطيعون الوصول إليه بدونها إلا بتعب شديد ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وخلق لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها، وتنقلوا عليها متاعكم وبضائعكم، وسيخلق على مر الزمن من وسائل المواصلات ما لا حصر له إذا استخدم الإنسان عقله الذى حباه الله به ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ إذا ما لجأ العبد إلى الله واستعان به ليسلك سبيله، فإن الله سيتولى بيان الطريق القاصد الحق ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ومن بعض الطرق والمسالك ما هو جائر، أى مائل عن

الحق، فعلى الإنسان أن يستخدم عقله وقلبه ليهتدى إلى الطريق المستقيم للحق بلا زيغ ولا انحراف ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بقوله كن فيكون، ولكن الله خلقكم لاختباركم بالتكليف، وبتحميلكم أمانة الخلافة.

***

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾

الله هو الذى أنزل من السحاب مطراً لترتووا أنتم ودوابكم وأشجاركم وزروعكم ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترعى فيه أنعامكم. ثم عددت الآية بعض الخيرات التى تخرجها لنا الأرض، مثل الزيتون والنخيل والأعناب، وغيرها من الثمرات التى ما كانت تخرج إلا بخلق الله بالحق، بسننه، أى قوانينه فى الكون، فى الماء والأرض والنبات، ومنها ما ينبت بلا أى تدخل إنسانى، ومنها ما يزيد بالتدخل الإنسانى، أو يحتاجه بصفة رئيسية، وهذا التدخل الإنسانى هو أيضًا من نعم الله الذى أمد الإنسان بآليات المعرفة والعمل ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

***

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾

سخر الله للإنسان الليل ليسكن فيه إلى الراحة، والنهار ليسعى على حوائجه وأوجه نشاطه، وسخر الشمس للإمداد بالطاقة وبالضوء ولمعرفة الوقت ببيان السنة الشمسية، وسخر القمر لبيان الشهور والسنين القمرية، لمعرفة الوقت، وللإنارة الليلية، وبقية الكواكب والأجرام والنجوم ليهتدى بها الإنسان، كل ذلك مسخر ومسير لخدمة الإنسان بأمر الله ومشيئته، أفلا يتدبر ويتفكر أصحاب العقول؟! ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ وما خلق وأبدع من نبات وأشجار وجبال ووديان، وأنهار وبحار بما فيها من مخلوقات لا حصر لألوانها ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

***

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾

وتتوالى نعم الله على الناس كى يتأملوا ويذكروا ويشكروا، فلقد خلق البحار للناس ليصطادوا أسماكها ويأكلوا منها لحمًا طريًا، وليستخرجوا الحلى والزينة كاللؤلؤ والمرجان، وتشق السفن البحار لتنقل الناس والبضائع، وتستمتعوا بركوب البحر وتكتشفوا عالمه العجيب، وتنهلوا من أفضال الله عليكم، أفلا تشكرون؟ ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ ﴾ وجعل جبالاً راسيات حتى لا تضطرب وتهتز، وقال زغلول النجار: [وجود الجبال بكتلها الغائرة فى الغلاف الصخرى للأرض، والطافية فى نطاق الضعف الأرضى يقلل من شدة ترنح الأرض فى دورانها حول محورها، ويجعل حركتها أكثر انتظامًا وسلاسة، تمامًا كما تفعل قطع الرصاص التى توضع حول إطار السيارة للتقليل من رجرجتها وانتظام حركتها. هذه الحقائق العلمية عن كلٍّ من الجبال والأنهار والسبل، بدأ الإنسان فى جمع أطرافها فى بطء شديد عبر القرون المتعاقبة، ولم يبدأ فى بلورة تصور صحيح لها إلا فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، ولم يكتمل هذا التصور إلا فى منتصف الستينيات من القرن العشرين]، وأجرى الله لكم الأنهار لترتووا منها أنتم ودوابكم وزرعكم، كما مهد لكم الطرق والمسالك وجعل فيها علامات مثل الجبال والتلال والبحار والبحيرات والأنهار والجداول وغيرها، حتى تهتدوا بها فى سعيكم الدنيوى والأخروى، وكذلك تهتدون بالنجوم ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ استعرضوا النعم وحاولوا حصرها، ولن تستطيعوا؛ ومع ذلك اتخذتم شركاء، ورغم ذلك فإن الله غفور رحيم ينتظر توبة التائبين ليشملهم برحمته، والله خبير عليم بما تُكنّ صدوركم وما تعلنون.

***

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾

إن المشركين الذين يعبدون من دون الله أصنامًا وأهواءً، لا تخلق شيئًا، بل إنها مخلوقة، سواء بيد الإنسان أو بخياله الطاغى، لا حياة فيها وما تدرك متى يبعث الله العباد ليوم

الحساب، أما الله فهو رب العالمين الواحد الأحد، ولكن الذين ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ رافضة منكرة أن يكون هناك يوم للحساب، يستكبرون عن حساب بموازين غير موازينهم، يستوى فيه الخلق جميعًا ولا يتميزون إلا بعملهم الحق ﴿ لا جَرَمَ ﴾ حقّا إن الله يعلم ما يخبئون فى قلوبهم وما يعلنون، والله لا يحب المستكبرين.

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾

كان كبار قريش من فرط تكبرهم وتعاليهم على الحق إذا ما سئلوا عن القرآن قالوا: ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ما سُطر فى كتب الأولين ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ ليتحملوا ذنوبهم كاملة، ثم يتحملوا معها أوزار وذنوب الذين تسببوا فى إضلالهم بغير علم ولا حجة، لا ينقص من وزر الذين تبعوهم فى الضلال ﴿ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ بئس ما حملوا من أوزار.

***

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

***

ألا يعتبر مشركو مكة من الأمم السابقة التى مكرت بأنبيائها ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ قال أكثر المفسرين إن المقصود نمرود بن كنعان الذى بنى بناءً عظيمًا فى بابل أراد الصعود عليه ليقاتل أهل السماء، بينما قال الماتريدى عن ذلك: [. . . وهو ما نزل بقوم لوط . . . أما ما ذكر بعض أهل التأويل عن الصرح الذى (بناه) نمرود ووقوعه عليهم فإننا لا نعلم ذلك]، وحكاية نمرود أصلها فى سفر التكوين فى العهد القديم من الكتاب المقدس، وتحتمل الآية ما هو أوسع من ذلك وأكثر تكرارًا، فهى مشهد حى لكل أمة بنت عقيدتها على أساس من فكر باطل منحرف، فزلزل الله قواعدها، وتهدم عليها سقفها الذى تصورت أنه يحميها، وأتاها عذاب الله من حيث لا تشعر ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ يذلهم الله ويهينهم بعذاب الخزى، ويقول لهم ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ الذين أشركتموهم معى فى

العبادة ﴿كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تخاصمون رسلى ومن آمن بهم، وتحاربونهم ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال: الأنبياء والعلماء ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

* * *

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

الذين يموتون مُصرِّين على ظلم أنفسهم بالكفر ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ فاستسلموا، وأنكروا ما كانوا يعملون فى الدنيا ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ وهذا أحد مشاهد يوم القيامة، وأحد مواقف الخزى والعار، وتغافلوا عن أن الله يعلم ما كانوا يعملون ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ حيث يقيم المتكبرون.

* * *

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾

أما المؤمنون المتقون، فإنهم يُسألون: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فيجيبون: ﴿خَيْرًا﴾ الذين أحسنوا فى القيام بحمل أمانة الخلافة لهم فى الدنيا ﴿حَسَنَةٌ﴾ حياة طيبة، وجزاؤهم فى الدار الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لهم فيها كل ما يشاؤون، وبها «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه البخارى ومسلم، هذا هو جزاء الذين اتقوا الله فى الدنيا، الذين تتوفاهم الملائكة ﴿طَيِّبِينَ﴾ نقيض حال الكافرين ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ فأولئك المتقون طابت أنفسهم بما عملوا، تبشرهم الملائكة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)﴾

ماذا ينتظر المشركون بعد أن كفروا بما جاء به الأنبياء ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ لإهلاكهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أو يأتي حساب ربك بالموازين الحق؟! كذلك انحرف الذين من قبلهم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بجحود الحق، ونقض الشهادة، وتعطيل ما حباهم الله به من نعم الفطرة والعقل والمدارك، فنالهم جزاء سوء أعمالهم، وأحاط بهم استخفافهم بالرسل وبالحق.

***

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾

وتحجج المشركون وراحوا يبررون كفرهم بأن هذا قدرهم، ولو أراد الله لهم ولآبائهم ألا يعبدوا إلا إياه، ولا يحرموا إلا ما حرمه الله لفعلوا ذلك، كذلك تحجج من كان قبلهم، فما عليك إلا البلاغ الواضح ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ يدعو إلى عبادة الواحد الأحد وترك عبادة ﴿ الطَّاغُوتَ ﴾ وهو كل ما يُعبد من دون الله، وكل ما يُطغى الإنسان، فمن الناس من استجاب واهتدى، ومنهم من تكبر وجحد فاستحق الضلال، فسيروا أيها الناس في الأرض وتأملوا ديار عاد وثمود وقوم لوط لتروا جزاء كذبهم.

***

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾

مهما حرصت على هدى ذلك الصنف من المشركين فلن يهديهم الله، فأولئك الذين استحقوا أن يضلهم الله، ولن يجدوا يوم القيامة من يدافع عنهم، ولكراهيتهم أن يقفوا أمام الله يوم الحساب، يقسمون أغلظ الأيمانات بأن الناس لن يبعثوا بعد موتهم، والله يرد عليهم ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من الحق والباطل ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ بإنكار البعث والحساب بعد الموت،

وليحصدوا ثمار أعمالهم فى الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وما أمر البعث عند الله إلا كما يأتمر كل ما فى الكون بأمره، يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

* * *

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾

أما المهاجرون فى سبيل الله، سواء أهل مكة أو من يحذون حذوهم فى كل زمان ومكان، فالله وليهم فى الدنيا والآخرة، يأتيهم فى الدنيا حسنة، وأجر الآخرة أكبر، وأطول أمداً، جزاء صبرهم وتوكلهم على الله.

* * *

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾

عندما طلب مشركو مكة من رسول الله (ﷺ) أن يرسل إليهم رسولاً من الملائكة كى يؤمنوا فقال تعالى: يا محمد ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ كان جميع الرسل رجالاً من البشر، إلا أن الله يوحى إليهم ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ تعددت تأويلات أهل الذكر، فمنها علماء أهل الكتاب، ومنها علماء الإسلام لقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ومنها أن المقصود ارجعوا لما أنزلنا من كتب لتعلموا أن الرسل كانوا رجالاً، ويمكن القول بأن الذكر كلمة عامة تشمل كل كتب الله، ويُمكن أن تطلق على أىّ منها، كجزء من الذكر، والله أعلم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أرسلنا الرسل بالبينات و ﴿وَالزُّبُرِ﴾ جمع زبور أى كتاب والمقصود الكتب السماوية ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يا محمد أرسلنا إليك القرآن؛ لتوضح للناس جميعًا ما نزل على جميع الرسل من التوحيد والإيمان والعمل الصالح؛ لعلهم بعد كل هذا يتفكرون ويتدبرون ويهتدون إلى الحق المبين.

* * *

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧)﴾

لماذا يتمادى الكفار والمشركون فى جحودهم وإصرارهم على الباطل؟ هل اطمأنوا بالاً واستكانوا إلى مكرهم! لماذا لا يعتبرون بمن مضى ويخشون أن يخسف الله بهم الأرض، أو ينزل عليهم العذاب من حيث لا يدرون؟ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أو يهلكهم فى سعيهم أو سفرهم فى الأرض، أو فى تقلب أحوالهم، أو حتى تقلبهم فى فراشهم، ويجمع كل ذلك: يأخذهم فى أىّ وقت، وفى أىّ حال يشاء، وكيف يشاء ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فما هم فائتين من عذاب الله بالهرب ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أو يهلكهم على خوف من العذاب، أو على نقص الأنفس والثمرات، فأحد معانى تخوف هو تَنَقُّص ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا تتمادوا وتتعجبوا من أن الله يمهلكم ويملى لكم؛ فإن من شأنه ألا يعجل بالعقوبة عسى أن تعودوا إلى صوابكم، فهو الرءوف الرحيم.

***

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾

أو لم ير أولئك الكفار أن كل مخلوق على الأرض ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ قال الطبرى: [يرجع (ظله) من موضع إلى موضع، فهو فى أول النهار على حال، ثم يتقلص، ثم يعود إلى حال أخرى فى آخر النهار] ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ منقادًا لقوانين الكون التى وضعها رب العالمين حسب مشيئته ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ منقادون صاغرون. ولله يسجد، كل ما فى السماوات وما فى الأرض، من مخلوق يدب على ظهرها، والملائكة يسجدون ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهم طائعون لا يستكبرون عن عبادة الله، وقال بعض المفسرين: إن ذلك يعم كل المخلوقات بما فى ذلك الإنسان، فالإنسان العاصى لا يستطيع أن يخرج بعصيانه عما مكنه الله وهيأ له فيه مجال الاختيار، وهو محدود وليس فيه ما يمكن فرضه على الله، وإنما منحه الله ذلك بمشيئته، وإذا كان ذلك حال العاصى، فحال المطيع واضح، وراجع شرح الآية ٨٣ من سورة آل عمران والآية ١٥ من سورة الرعد﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يخافون قدرة الله عليهم، فذلك علو بلا تشبيه ولا تمثيل، لا يعلمه إلا الله، وهو علو قدرة وتمكن،

وليس علو مكان، فالله خالق المكان وخالق الزمان، ولا يحتويه لا مكان ولا زمان ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

* * *

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾

جعلت بعض الأساطير الآسيوية، والتي وجدت طريقها لأنحاء أخرى في العالم القديم، للكون إلهين؛ إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلام، فنزلت الآية بنفي ذلك، والتوكيد على إله واحد للكون، يقوم به وينظم شئونه ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ الدين لله دائمًا واجبًا خالصًا دائمًا لا يزول ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

* * *

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾

وكل النعم التي تتغافلون عنها بالليل والنهار هي من عند الله، ثم إذا أصابكم ضرر في نفوسكم أو أموالكم ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والتضرع ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ واستجاب لدعائكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يُرجع بعضكم رفع البلاء إلى غير جناب الله، أو يعود لشركه السابق ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وهذا هو الكفر بالنعمة فليتمتعوا ويلهوا، فسيعلموا جزاء هذا الجحود ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ويجعلون لآلهتهم التي لا تدري شيئًا، وقيل يجعلون لما هم لا يعلمون حقيقته من شركاء ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ جزءًا مما رزقهم الله ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ إن الله سائلكم يوم القيامة عن هذا الافتراء.

* * *

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي

﴿التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)﴾

يجعل المشركون الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزه الله عن ذلك، ويحبون الأبناء الذكور بينما يقتلون الإناث، وإذا جاءت أحدهم البشرى بأن زوجته أنجبت أنثى، اسْودَّ وجهه وكظم غيظه، ثم هو يتوارى ويستخفى من قومه من فرط اعتقاده بخزى الأنثى، وأصابته الحيرة أيمسك الوليدة ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ فيعانى منها الهوان؟ أم يدفنها فى التراب حتى يتخلص من عارها؟ ويحكم المولى على ذلك قائلاً: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وهل هناك أسوأ من أن يقتل الأب وليدته؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أولئك الذين جحدوا آيات الله، ونقضوا شهادتهم الأولى، وعطلوا ما حباهم الله به من فطرة وعقل ومدارك، لهم صفة السوء ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ الكمال المطلق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى يهب العزة لمن يشاء، ويمنعها عمن يشاء ﴿الْحَكِيمُ﴾ المتصرف فى الكون والقائم عليه بحكمة.

***

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢)﴾

ولو عَجَّل الله للناس العقوبة بسبب ظلمهم ما ترك منهم أحداً يدب على الأرض، ولكن يمهلهم ليتوبوا وليعملوا الصالحات، فمن جاء أجله، خرجت روحه بلا تقديم ولا تأخير ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ينسبون إلى الله ما لا يحبون كالبنات والشركاء، ويكذبون قائلين ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ حسن العاقبة فى الآخرة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ حقّا لا محالة أن لهم النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مُقدَّمون سراعًا إلى النار.

***

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)﴾

والله يا محمد لقد بعثنا رسلنا إلى أقوام من قبلك مبشرين ومنذرين، ولكن الشيطان أغواهم وزين لهم سوء عملهم حتى قادهم إلى العذاب الأليم، ولقد أوحينا إليك القرآن لتبين للناس ما اختلفوا فيه من عقيدة وشريعة ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

***

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

ولو تأمل الإنسان قدرة الله في تكوين السحاب وتصريفه شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وإنزال المطر الذي يحيي ﴿ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ولو تأمل قدرة الله في جعل ماء المطر يحيي الأرض الجرداء، لوجد آية إن كان يستمع للحق. فإذا ما نظرت إلى الإبل والبقر والضأن والمعز لرأيت آيات عجبًا، يخرج اللبن لذيذًا هنيئًا ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ من بين فضلات العلف في كرش الحيوان، وبين الدم الأحمر القاني، ثم إذا نظرت إلى ﴿ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴾ المختلفة الألوان والأشكال والأحجام والطعوم والروائح والفوائد، فبعض الناس يحول النعم إلى نقم فتصبح سَكَرًا [مُسْكِرًا] يذهب بالعقول، وبعض الناس يأكلها كفاكهة وأطعمة حلال، مثل المربى والفطائر، والعصائر، وغيرها، أفلا يتدبر أولو العقول؟

***

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾

وألهم الله النحل ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ اجعلي من الجبال، ومن الشجر، ومما يصنع لك البشر من المناحل بيوتًا، ثم كلي من ثمرات الأزهار والورود، ومن للتبعيض، واتبعي سبل ربك، يخرج من بطونك عسل مختلف ألوانه ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ وهذه المعجزة أثبتها العلم القديم والحديث، ويمارسها الناس قديمًا وحديثًا لعظيم فائدتها، وقال الزمخشري: [لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، وتنكيره إما لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء،

وكلاهما محتمل]، وقال الشوكانى: [وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض؟ فقالت طائفة: هو على العموم، وقالت طائفة: إن ذلك خاص ببعض الأمراض، ويدل على هذا أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عامّا، وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاءً عظيمًا لمرض أو أمراض، لا لكل مرض. وبالجملة فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

***

(١) قال زغلول النجار: [﴿ . . أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ الخطاب هنا إلى إناث النحل الشغالات اللائى يقمن بالبحث عن المكان المناسب لبناء بيوت النحل. . ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. . فشغالات النحل تتغذى على كلّ من رحيق الأزهار وحبوب اللقاح الموجودة فيها، والرحيق عبارة عن محلول مائى غنى بالكربوهيدرات التى أهمها السكريات، أما حبوب اللقاح فهى غنية بكلّ من البروتينات، والأحماض الأمينية والڤيتامينات والخمائر، بالإضافة إلى عدد من العناصر المعدنية ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ ومن السبل التى يسرها الخالق (سبحانه وتعالى) للشغالات من إناث النحل، كى يمكنها من إنتاج هذا الشراب العجيب، الذى جعل فيه شفاء للناس:

فم قارض، ماص، لاعق، وشفاه ملعقية، وخرطوم ماص، وجهاز هضمى مميز يختلف عنه فى بقية الحشرات، ويتكون العسل بإفراز عدد من الإنزيمات الخاصة من الغدد اللعابية على الرحيق لتحول ما به من السكريات الثنائية، مثل سكر القصب إلى سكريات أحادية من مثل كلّ من سكر العنب وسكر الفواكه، التى تختلط بعدد آخر من الإنزيمات والهرمونات، التى تحول الرحيق المهضوم إلى عسل النحل، وبالإضافة إلى ذلك، تقوم الغدد البلعومية بإفراز غذاء ملكات النحل، وتقوم الغدد الشمعية بإفراز شمع العسل، ويتحول المبيض فى شغالات النحل إلى جهاز لاسع يفرز سم النحل، الذى تدافع به النحلة عن ذاتها وعن خليتها، والذى جعل الله (تعالى) فيه كذلك شفاء لعدد من الأمراض، هذا بالإضافة إلى عدد من الغدد الأخرى التى هيأ الله (تعالى) كلاّ منها لإفراز مادة خاصة مما تحتاجه شغالات النحل، فى القيام بنشاطاتها المختلفة، وتأدية وظائفها المتعددة.

وبذلك يكون من معانى الأمر الإلهى إلى شغالات النحل ﴿. . . فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا. . .﴾ أى فاصنعى من رحيق الأزهار وطلوعها (حبوب اللقاح) عسلاً، وغذاء ملكيًا، وشمعًا، وخمائر (إنزيمات) وسمومًا بالسبل التى يسرها الخالق (سبحانه وتعالى) لك، أى القنوات المختلفة فى جهازك الهضمى المعقد، الذى خصك الخالق القادر به، والذى يمر به غذاؤك الذى جمعته من كل الثمرات فتتغذين على جزء منه، وتخرجينه على هيئة فضلات، وتحولين أغلبه إلى هذا الشراب المختلف الألوان الذى أعطاك الله (تعالى) الإلهام والقدرة على إعادة إخراجه من بطنك إلى فمك، فتصبينه فى خليتك شرابًا جعل الله (تعالى) فيه شفاء للناس، ولذلك جاءت لفظة سبل جمعًا منكرًا، ونسبت إلى رب النحل تعظيمًا لشأنها، ولشأن الدور الذى وهبها الله (تعالى) القدرة على القيام به لإخراج هذا الشراب، وإشارة إلى ما فى ذلك من إبداع الله فى الخلق، وروعة تقديره الذى خص به إناث النحل من الشغالات دون غيرها من الحشرات.

من الدلالات العلمية للنص الكريم.

أولا: فى قوله (تعالى): ﴿. . .يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا. . .﴾. =

= أصل (البطن) الفراغ الحاوى على الأحشاء الرئيسية لجسم كل حيوان أو إنسان، وضمير الهاء فى (بطونها) يعود على إناث النحل من الشغالات، وهن اللائى يصنعن الشراب المختلف الألوان الذى فيه شفاء للناس، وهى حقيقة لم تدرك إلا بعد قرون متطاولة من نزول القرآن الكريم.

ثانيًا: فى قوله (تعالى): ﴿ ..شرابٌ مُّختلفٌ ألْوَانُهُ.. ﴾

وهذا الشراب المختلف الألوان، يشمل كلاً من عسل النحل، والغذاء الملكى، وما بهما من حبوب اللقاح، وصمغ النحل (العكبر)، وشمع النحل، وسم النحل، وكلها تخرج من بطون الشغالات من إناث النحل فى حالة سائلة (شراب) ثم يجمد أو يتبلور بعد ذلك، ولذا جاءت الإشارة إلى هذا الخليط العجيب إشارة عامة ﴿ ...شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ... ﴾، وقد فهم جميع المفسرين من هذه الإشارة، أنها تقصد عسل النحل؛ لأن بقية ما يخرج من بطن النحلة الشغالة لم يعرف إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومكونات ذلك الشراب المختلف الألوان الذى فيه شفاء للناس (هى):

(١) عسل النحل
(٢) الغذاء الملكى
(٣) شمع النحل
(٤) صموغ النحل وغراؤه (العكبر)
(٥) سم النحل
(٦) خبز النحل

هذا الخليط العجيب، الذى تعجز أكبر المصانع التى بناها الإنسان عن إنتاج شىء من مثله، يخرجه ربنا (تبارك وتعالى) من بطون الشغالات من إناث النحل، ولذلك جاءت الإشارة إليها، وإلى بطونها، وإلى هذا الخليط العجيب بالتسمية (شراب مختلف الألوان)، وهى حقائق لم يبدأ الإنسان فى التعرف عليها إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادى.

﴿ ...فيه شفاءٌ لّلنَّاسِ إنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً لّقَوْمٍ يَتفكَرُونَ ﴾ [النحل: ٦٩].

من الدلالات العلمية للنص الكريم

يقول ربنا (تبارك وتعالى) عن الشراب المختلف الألوان الذى يخرجه بقدرته من بطون الشغالات من إناث النحل ما نصه: ﴿ ... فيه شِفَاءٌ لّلنَّاسِ إنَّ فى ذَلِكَ لآيَةً لّقَوْمٍ يَتفكَرُونَ ﴾ [النحل: ٦٩].

أولاً: الشفاء بين الإطلاق والتقييد

اعتبر غالبية المفسرين أن المقصود بهذا الشراب هو عسل النحل، علمًا بأن ذكر الشراب مطلقًا يشمل كل ما يخرج من بطون الشغالات ومنه العسل، والغذاء الملكى، وسم النحل، وخبز النحل، وشمع النحل، وصموغ النحل وغراؤه، والتى جمعها القرآن الكريم فى كلمة واحدة هى (شراب).

واختلف المفسرون بين تعميم الشفاء بهذا الشراب، وتخصيصه، فالمعممون أطلقوا الشفاء به لجميع الأمراض، وذهب البعض الآخر من المفسرين وعدد من المشتغلين بعلوم النحل وإفرازاته إلى أنه نظرًا لتباين الأمراض، والأفراد، والظروف، والاختلافات بين أعسال النحل فى صفاتها الطبيعية والكيميائية باختلاف نوع النحل، ومصادر طعامه، والظروف البيئية التى ينبت فيها هذا الطعام فإن كل خلية نحل تتميز بعسل خاص بها، ويندر التشابه بين العسل المجموع من خليتين مختلفتين تشابهًا كاملاً، من هنا كان الاستنتاج المنطقى أنه لا يلزم أن يكون العسل علاجًا لكل داء، على الرغم من أن الدراسات المختبرية قد أثبتت أن الشراب المستخرج من بطون شغالات النحل له فوائد علاجية عديدة، وأنه منظم لطبيعة الجسم البشرى، وأن الله (تعالى) قد أعطاه القدرة على إعادة هذا الجسد إلى توازنه الفطرى كلما اختل هذا التوازن بالمرض أو بغيره، خاصة إذا وجد الإيمان بذلك انطلاقًا من اليقين الجازم فى كتاب الله، والتصديق الكامل بسنة خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ).

ثانيًا: من الفوائد العلاجية للشراب المختلف الألوان

(أ) من الفوائد العلاجية لعسل النحل =

= (١) أثبتت الدراسات المختبرية لعسل النحل أنه مضاد حيوى قوى ومطهر من الطراز الأول، وأن دوره فى ذلك يفوق أدوار العديد من المضادات الحيوية المصنعة، ولذلك فإن لعسل النحل دورًا متميزًا فى علاج الجروح والحروق والقرحات المختلفة، وتطهيرها مما يمكن أن ينتج عنها من نتانات، وفى تنشيط بناء الأنسجة الحية مما يساعد على سرعة التئام الجروح.

(٢) ثبت للعسل دور فعال فى علاج كلٍّ من قروح الفراش، وأمراض الجلد وتشققاته، وحروقه، وتقرحاته، من مثل ما ينتج عن أمراض الجمرة الحميدة، والتهابات الغدد العرقية، وغيرها.

(٣) لعسل النحل دور بارز فى علاج حالات التهاب الجهاز الهضمى من مثل التهاب بطانة المعدة والأمعاء وقرحات كلّ من المعدة والإثنى عشر، وفى علاج حالات الاضطرابات المعدية من مثل الدوزنتاريا، والتقيؤ والإمساك، والإسهال غير واضح الأسباب، والتهابات الفم والبلعوم، ويعين فى القضاء على الجراثيم المسببة لذلك. . . ، فالعسل أعطاه الله (تعالى) القدرة على إعادة التوازن لجسم الإنسان بعد أن يختل أثناء فترة الإصابة بالأمراض. وعسل النحل سائل كامن القلوية على الرغم من احتوائه على نسب من الأحماض الأمينية، وذلك بسبب ما يحتويه من العناصر المعدنية، وتعينه هذه الخاصية على معادلة الحموضة الزائدة فى المعدة والتى عادة ما تتسبب فى إحداث قرحات الجهاز الهضمى.

(٤) ثبت للعسل دور واضح فى تحسين وظائف الكبد وتنشيطه، وفى علاج الالتهابات الكبدية المختلفة، وحالات التسمم الكبدى، وفى تنشيط عمل البنكرياس، وفى علاج داء البول السكرى فى حالات الظهور المتأخر للمرض (بعد سن الأربعين)، وليس فى حالات الإصابة به فى أعمار مبكرة.

(٥) كذلك للعسل دور مهم فى تقوية كلٍّ من القلب، وضبط نبضاته، وتقوية الأوعية الدموية، وضبط ضغط الدم، خاصة فى حالات القصور التاجى المتزامنة مع الذبحة الصدرية وغير المتزامنة معها، وفى زيادة نسبة الهيموجلوبين فى الدم، وفى المساعدة على سرعة تخثره فى حالات النزيف، وفى علاج غير ذلك من أمراض القلب والشرايين.

(٦) وثبت للعسل دور فى علاج حالات المثانة البلهارسية المزمنة، وحالات اضطرابات الجهاز البولى/التناسلى.

(٧) وللعسل تأثير إيجابى فى علاج آلام المفاصل الروماتيزمية.

(٨) لعسل النحل دور مهم فى علاج العديد من أمراض الجهاز التنفسى من مثل حالات النزلات الشعبية والربو، والالتهاب التحسسى (من مثل حمى القشش)، والتهابات الأنف والجيوب الأنفية والقصبة الهوائية، والرئتين وأمراضها.

(٩) ثبت للعسل دور واضح فى علاج أمراض الجهاز العصبى من مثل التوتر، والأرق، وتقلصات الجفون أو تقلصات زاوية الفم، وتشنجات العضلات من مثل عضلات الكفين والساقين والقدمين، والشلل، وفى علاج حالات الإدمان وغيرها.

(١٠) كذلك ثبت للعسل دور كبير فى علاج بعض أمراض العيون من مثل التهابات الجفون، والملتحمة، والقرنية، وأمراض الرمد المزمنة، وتقرحات العين بصفة عامة.

(١١) لعسل النحل تأثير إيجابى فى علاج حالات التسمم أثناء الحمل الذى من أعراضه ارتفاع ملحوظ فى ضغط الدم فى أواخر أيام الحمل، وانتفاخ واضح فى الساقين، مع زيادة فى نسبة الزلال فى البول.

(١٢) ثبت لعسل النحل دور واضح فى تقوية جهاز المناعة، وزيادة عدد كريات الدم البيضاء والحمراء زيادة ملحوظة، ولذلك يعتقد بأن تناول العسل الطبيعى بشمعه والغذاء الملكى المصاحب له، وسم العسل الموجود فيه، وما قد يصاحبه من حبوب اللقاح (خبز العسل) وصموغ النحل يمكن أن يكون له دور فى الوقاية من عدد من الأمراض الخطيرة كالسرطان، والشلل. =

= (١٣) كذلك ثبت للعسل دور فى علاج الشعر، وفى المحافظة على صحة فروة الرأس.
(١٤) وفى علاج الأطفال الخدج (المبتسرين) أى المولودين قبل أوانهم ثبت لعسل النحل دور بارز.
(١٥) المستحضرات الطبية التى تحتوى على العسل تساعد على تجديد حيوية الجلد بتغذيته وترطيبه.

(ب) من الفوائد العلاجية للغذاء الملكى

أثبتت الدراسات المختبرية والسريرية أن لغذاء ملكات النحل عدداً من الفوائد العلاجية الواضحة منها:
(١) إنه مطهر قوى لاحتوائه على نسب عالية من المضادات الحيوية الطبيعية، ولذلك يفيد فى علاج العديد من الأمراض، ومنها الأمراض الجلدية.
(٢) علاج التهابات المفاصل، والتقليل من الآلام المصاحبة لها.
(٣) الوقاية من الإصابة بسرطانات الدم.
(٤) التأثير الإيجابى على الصحة العامة للفرد ورفع قدراته البدنية والمعنوية، وزيادة نشاط غدده التناسلية.
(٥) زيادة قدرة كلٍّ من المخ والقلب والكبد على التزود بالأكسجين مما يزيد من نشاط هذه الأجهزة ويضاعف من قدرتها على العمل وتحمل المشاق وينعش الذاكرة.
(٦) علاج عدد من الأمراض العصبية من مثل التشنج، وتصلب شرايين الدماغ، والربو العصبى، وارتعاش الأطراف.
(٧) خفض نسبة الكوليسترول الضار فى الدم مما يعين على تجنب الذبحات الصدرية.
(٨) رفع كفاءة جهاز المناعة فى الجسم مما يعين فى الوقاية من العديد من الأمراض الخطيرة مثل السرطان.
(٩) تجديد حيوية كلٍّ من قرنية العين، والملتحمة، والأجفان خاصة فى حالات الحروق (ويستخدم الغذاء الملكى فى هذه الحالة كمرهم بنسبة ١٪).

(جـ) من الفوائد العلاجية لشمع العسل

يفيد شمع العسل فى المساعدة على تسليك مجارى الجهاز التنفسى من مثل الأنف والجيوب الأنفية، والقصبة الهوائية والرئتين.
(د) أثبتت الدراسات المختبرية أن سم النحل يحتوى على عدد من الأحماض الأمينية، وعلى غيرها من المركبات الكيميائية المضادة للالتهابات والتى تعطى تسكينا عامّا للمجموعة العصبية المركزية، كما تنشط المقاومة العامة للجسم، ولذلك فإن سم النحل الذى توجد منه نسبة فى العسل تضخها الشغالات فى عيون الخلية كنوع من التعقيم بعد ملئها بالعسل وختمها بالشمع، هذا السم له فوائد علاجية كثيرة منها ما يلى:
(١) فى علاج آلام المفاصل الناتجة عن عدد من الأمراض الروماتيزمية، والآلام العصبية مثل تلك الآلام الناتجة عن أمراض عرق النسا، وتجويف النخاع (Syringomylia)، وآلام العمود الفقرى.
(٢) فى مداواة بعض حالات الصداع النصفى المعروف باسم «الشقيقة».
(٣) فى علاج بعض الأمراض الجلدية مثل الذئبة الوجهية، وداء الصدفية، والإكزيما، وتقرحات الركبتين، والتهابات البشرة، وغير ذلك من أمراض التهاب الجلد.
(٤) فى مداواة بعض حالات التهاب العين.
(٥) فى العلاج من أمراض سلس البول، والملاريا، والتسمم الدرقى.

(هـ) من الفوائد العلاجية لخبز النحل

يطلق تعبير خبز النحل على عجينة من حبوب اللقاح وفتاتها وعسل النحل، والدور الفعال فيها هو لحبوب اللقاح وفتاتها والتى توجد بكثرة مع عسل النحل، وهذه لها فوائد علاجية كثيرة منها ما يلى: =

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾

وهبكم الله الحياة لأعمار محددة، ومن الناس من يطيل الله أجله حتى يبلغ ﴿ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ حين يصبح عاجزًا، جسديّا وفكريّا، فلا تتمنوا الخلود فى الدنيا، واعملوا لآخرتكم حيث يمكنكم الخلود شبابًا لا يهرم، يتمتع بخيرات الجنة ورضا الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بخلقه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على إنفاذ مشيئته ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ فنحن غير متساوين فى الرزق ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ ﴾ الذين فضلهم الله فى الرزق لا يردون فضل رزقهم ﴿ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من العبيد، وقال الزمخشرى: [قيل المعنى أن الموالى (أصحاب العبيد) والمماليك أنا رازقهم جميعًا، فهم فى رزقى سواء، فلا يحسبن الموالى أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئًا من الرزق، فإنما ذلك رزقى أجريه إليهم على أيديهم].

* * *

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ

= (١) فى علاج العديد من التهابات الأنف التحسسية من مثل حمى القش والربو.
(٢) فى حالات التعرض لجرعات عالية من الإشعاع وما يصاحب ذلك من أمراض.
(٣) فى مداواة حالات التهاب البروستاتا.
(٤) فى تناول مستحضرات تجمع بين حبوب الطلع والغذاء الملكى وعسل النحل ما يساعد على تحسن حالة الجسم عامة، وعلى تقوية الغدد التناسلية، وفى علاج حالات الإجهاد النفسى، والتوتر العصبى، والخمول البدنى.
(٥) فى التخفيف من أعراض سن اليأس عند النساء مثل الصداع، وخفقان القلب، والارتفاع فى درجة الحرارة والتوتر العصبى.
(٦) فى تركيب مستحضرات للتجميل تعين على إعادة حيوية الجلد.

(و) من الفوائد العلاجية لصموغ وغراء النحل

أثبتت الدراسات المختبرية أن صموغ النحل وغراءها قاتلة للجراثيم من البكتيريا والفطريات والفيروسات، وأنها تزيد من مناعة الجسم، ولذلك فلها عدد من الفوائد العلاجية فى حالات منها:
(١) أمراض الجهاز التنفسى مثل الرشح (الزكام)، والتحسس (الحساسية).
(٢) آلام المفاصل الروماتيزمية، وتأخر نمو العظام.
(٣) بعض الأمراض الجلدية.
(٤) بعض أمراض العيون.
(٥) تطهير الجروح خاصة جروح الحروب والمساعدة على التئامها.
(٦) التهابات جوف الفم وتسوس الأسنان.
(٧) تقوية المناعة، ومقاومة الإجهاد، والتلوث البيئى لوفرة مضادات الأكسدة فيه.

رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

من نعم الله أنه جعل لنا أزواجًا نسكن لها، ثم جعل لنا أولادًا وأحفادًا نستمتع بهم صغارًا ويشدون أزرنا كبارًا، ثم غمرنا بأرزاق لا تعد ولا تحصى. . ومع كل هذا الإغداق يؤمن المشركون بالباطل ويكفرون نعم الله، ويعبدون أوثانًا وأصنامًا وأفرادًا وأهواءً، تضرهم ولا تنفعهم، ولا ترزقهم، فلا تذكروا لله أمثالاً؛ لأن الله يعلم ﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾.

* * *

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾

قال ابن كثير: [قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير (الطبرى). فالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سرًا وجهرًا هو المؤمن]، كذلك قال الماتريدى فى الآية الثانية. فالمؤمن المضروب به المثلان هو الذى يعمل ـ طبقًا لإيمانه ـ لما فيه مصلحته، ومصلحة عائلته، ومجتمعه، والعبد المملوك هو الذى ملكته أهواؤه، لا يقدر على فعل الخير، وفى المثل الثانى هو الأبكم الذى هو عالة على مولاه لا يأتى بخير، لا يدعو لمعروف ولا ينهى عن منكر.

* * *

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾

الله وحده هو العالم بالغيب الذى فى السماوات والأرض؛ وهو وحده يعلم متى ساعة الحساب، لا تأتى إلا فجأة ﴿ كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ أو أسرع ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. ولدتكم أمهاتكم لا تدركون ولا تعون شيئًا، فجعل الله لكم السمع والبصر والفؤاد تستعينون

بها فى حياتكم لخير دنياكم ودينكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن الله الذى منَّ عليكم بكل هذه الرعاية يستحق الشكر والعبادة والإخلاص، ومن عظيم قدرته تسخير الطير ﴿فِى جَوِّ السَّمَاءِ﴾ تسهيل وتيسير طيرانها فى الجو، لا أحد يسيطر عليها ويحفظ لها توازنها إلا الله، بما جبل فيها من أدوات، وبما سنه من قوانين الحركة وغيرها، أليست هذه من آيات قدرة الله يدركها القوم المؤمنون؟!.

***

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾

سن الله قوانين يعمل كل ما فى الكون وفقًا لها، ومنحكم الله القدرات الفكرية والجسدية التى استطعتم بها بناء مساكنكم للإقامة، ونصب خيامكم التى تصنعونها من جلود الأنعام عند ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ عند ترحالكم وسفركم، وهى خفيفة الحمل، وتتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها فراشًا ووسائد وسجاجيد وغير ذلك من الأثاث، والمتاع إلى حين، وخلق لكم ظاهرة الظل، يحميكم من حرارة الشمس، سواء بالأشجار والنخيل، أو التلال والجبال والكهوف، وجعل لكم من الجبال مساكن فيها أو من حجارتها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ ملابس ودروعًا، تقيكم من الحر، ومن قتالكم بعضكم البعض ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ عندما تُقدِّرون كل تلك النعم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ فإن أعرضوا؛ فإنما عليك البلاغ الواضح البين ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ إنهم يعلمون ويرون نعم الله عليهم، ولكنهم ينكرونها، وأكثر هؤلاء الجاحدين كافرون.

***

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)﴾

أنذر الناس، وحذِّرْهم مما سيحدث لهم يوم القيامة حين ﴿نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ليشهد على قومه وماذا فعلوا ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يؤذن للكفار بالاعتذار، ولا يطلب منهم الرجوع عن إساءاتهم واسترضاء ربهم، فقد فات أوان ذلك ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وحين يحل بالظالمين العذاب، لا يخففه الله عنهم ولا يؤجله ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ وفى أحد مشاهد يوم القيامة، يقول المشركون ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ فتنطق الأوثان والأصنام وكل مَنْ عُبد من دون الله من بشر وحجر، من فكر ومعتقد، من هوى وغير ذلك ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لسنا شركاء لله بل نحن عبيده ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ واستسلم المشركون لمصيرهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من آلهتهم، أولئك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، سيزيدهم الله عذابًا فوق العذاب جزاء إفسادهم فى الأرض.

***

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾

ويوم القيامة يبعث الله ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ليشهد عليهم، ثم يجىء الله بمحمد (ﷺ) شهيدًا على كل هؤلاء الشهداء بما أنزل الله إليه فى القرآن من الخبر اليقين لما حدث للأمم السابقة، فكأنه يشهد عليهم بما جاء فى القرآن، ويشهد للرسل، ويشهد على الأمم اللاحقة التى بلغتها رسالته دون تحريف وتزوير، وهذا القرآن نزلناه ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ توضيحًا لكل مسائل العقيدة والشريعة، نصّا على بعضها وإحالة على السنة؛ حيث أمر الكتاب باتباع رسول الله (ﷺ) وطاعته، وبينت السنة أن على العلماء الاجتهاد بالقياس وما إلى ذلك فيما ليس فيه نص، وقال الشوكانى: [ومعنى كونه تبيانًا لكل شىء أن فيه البيان لكثير من الأحكام، والإحالة فيما بقى منها على السنة، وأمرهم باتباع رسول الله (ﷺ) فيما يأتى به من الأحكام، وطاعته كما فى الآيات القرآنية الدالة على ذلك، وقد صح عنه (ﷺ) أنه قال «أوتيت القرآن ومثله معه»] ﴿وَهُدًى﴾ هداية للحيارى ﴿وَرَحْمَةً﴾ لكل من آمن به واتبعه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بالجنة ورضوان الله إذا ما اهتدوا بهديه وتمسكوا به وحكّموه فى حياتهم.

***

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) ﴾

تعددت أقوال المفسرين فى الآية، فقال الطبرى: [(العدل) هو الإنصاف، ومن الإنصاف الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على أفضاله، وتولى الحمد أهله... فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولذلك قال من قال العدل فى هذا الموضع: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ وَالإِحْسَانِ ﴾ الصبر لله على طاعته فيما أمر ونهى، فى الشدة والرخاء، والمكره والمنشط ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ فى هذا الموضع الزنا ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ فى هذا الموضع الكبر والظلم]، وقال الزمخشرى بمذهبه الاعتزالى: [العدل هو الواجب؛ لأن الله ـ تعالى ـ عدل فيه على عباده، فجعل ما فرضه عليهم واقعًا تحت طاقتهم ﴿ وَالإِحْسَانِ ﴾ الندب ﴿ وَالْمُنكَرِ ﴾ ما تنكره العقول ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ طلب التطاول بالظلم]، وقال الشوكانى: [اختلف أهل العلم فى تفسير العدل والإحسان، فقيل العدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض، وقيل العدل الفرض والإحسان النافلة. وقيل العدل استواء العلانية والسريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية. وقيل العدل الإنصاف والإحسان التفضل. والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوى، وهو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط، فمعنى أمره سبحانه وتعالى بالعدل أن يكون عباده فى الدين على حالة متوسطة، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط وهو الغلو المذموم فى الدين، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشىء مما هو من الدين، وأما الإحسان فمعناه اللغوى يرشد إلى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع، وقد صح عن النبى (ﷺ) «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا هو معنى الإحسان شرعًا] يعظنا الله لنتذكر. عن ابن مسعود: إن أجمع (أشمل) آية فى القرآن للخير والشر، هى هذه الآية ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ويكفى أنكم ﴿ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ شاهدًا ورقيبًا وضامنًا، وهو يعلم ما تفعلون.

* * *

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾

أوفوا بالعهد الذى تقطعونه على أنفسكم، ولا تنقضوا الأيمان بالحنث فيها ﴿أَنكَاثًا﴾ أنقاضًا، أى تنقضونها بدلاً من أن تقيموها ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تقسمون بالله لتخدعوا الآخرين ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أكثر وأعز قوة ومالاً فتنكثون إيمانكم، وتعكسون تحالفكم لتتركوا الأمة الأصغر أو الأضعف وتحالفوا الأكثر أو الأقوى. قال الطبرى: [كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز، فنهوا عن ذلك ـ قاله مجاهد] ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يختبركم، ويوم القيامة يظهر لكم حقيقة اختلافكم. جاء فى «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»: هاتان الآيتان تدلان على أن أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم هى العدالة والوفاء بالعهد، وأن العلاقات الدولية لا تنتظم إلا بالوفاء بالعهد، وأن الدول الإسلامية إذا عقدت عهدًا فإنما تعقده باسم الله، فهو يتضمن يمين الله وكفالته، وتدل الآية على ثلاثة معان لو نفذتها الدول لساد السلم:

أولاً: أنه لا يصح أن تكون المعاهدات سبيلاً للخديعة وإلا كانت غشّا، والغش غير جائز فى العلاقات الإنسانية، سواء كانت علاقات آحاد أم علاقات جماعات ودول.

ثانيًا: أن الوفاء بالعهد قوة فى ذاته، وأن من ينقض عهده يكون كمن ينقض ما بناه من أسباب القوة، فيكون كالحمقاء التى تفك غزلها بعد تقويته وتوثيقه.

ثالثًا: أنه لا يصح أن يكون الباعث على نكث العهد الرغبة فى القوة أو الزيادة فى رقعة الأرض أو نحو ذلك][1].

***

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)﴾

(١) قارن ذلك بما جاء فى العهد القديم من الكتاب المقدس، من نهى عن حتى إبرام المعاهدات والمواثيق مع الأغيار (غير اليهود) حتى لا يكونوا شوكة فى عيونكم (فى عيون اليهود)، وتكرر ذلك الأمر عدة مرات بصيغ مختلفة، حسب الترجمات المختلفة، منها ما يلى:
- لا تبرم معهم ولا مع آلهتهم ميثاقًا ـ الخروج ٢٣: ٣٢.
- إياك أن تعقد معاهدة مع سكان الأرض التى أنت ماض إليها لئلا يكونوا شركا لكم ـ الخروج ٣٤: ١٢.
- إياكم أن تعقدوا معاهدة مع سكان الأرض ـ الخروج ٣٤: ١٥.
- لا تقطعوا لهم عهدًا، ولا ترفقوا بهم ولا تصاهروهم ـ التثنية: ٧ ـ ٢.

لو شاء الله لجعل الناس كلهم مجبورين على الطاعة مسلمين الوجه لله، ولكن مشيئته تكليف الإنسان بالخلافة، وابتلاؤه بمنحه حرية الاختيار ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ الذى يتكبر ويجحد ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ من يعطى ويتقى، ويبتغى مرضاة الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ هذا تكرار للنهى عن خديعة الآخرين بالقسم، وقال بعض المفسرين أن المقصود هنا هو إيمان البيعة للرسول (ﷺ)، وقال الشوكانى: [. . فالاعتبار بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب] ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ تزل عن الإسلام، بنكوثكم عن البيعة، واتخاذكم الجانب المعادى للرسول (ﷺ) والمسلمين ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فتستحقون بذلك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

* * *

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٧) ﴾

لا تستبدلوا موالاة قريش، أو متع الدنيا الفانية بعهد الله، فما عند الله خير وأبقى إن كنتم تعلمون، وسيوفى الله الصابرين بأحسن الأجر، ثم بشر الله الناس ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾

أمرنا الله ـ تعالى ـ بالاستعاذة به قبل قراءة القرآن ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أكدت الآيتان قدرة البشر على ردّ الشيطان عنهم، ورفض اتباعه، إذا ما آمنوا بالله وعليه توكلوا وبه استعاذوا، وسلطانه فقط على الذين ﴿ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ باختيارهم، والذين يتخذون من أهوائهم آلهة، فهم المشركون.

* * *

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

النسخ هو كما جاء فى سورة البقرة ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [الآية: ١٠٦] . قال المراغى: [إذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى، والله أعلم بالذى هو أصلح لخلقه فيما يبدل من أحكام، قال المشركون المكذبون لرسول الله: إنما أنت تتقول على الله، تأمر بشىء ثم تنهى عنه، وأكثرهم لا يعلمون ما فى التبديل من حكم بالغة، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عناداً واستكباراً].

قل لهم يامحمد أنزل الله هذا القرآن بالحق، نزل به جبريل حقّا من عند الله، ليثبت إيمان المؤمنين، ويهدى المسلمين، ويبشرهم بالفوز فى الدنيا والآخرة إن اتبعوه. وبعد تثبيت الإيمان، تجىء مرحلة العمل، فمن ثبت إيمانه سلَّم أمره لله، لذلك جاء النصف الثانى من الآية ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾، وبمثل ذلك قال البيضاوى.

***

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ وإننا نعلم، فكلمة ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ هنا مثلما فى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ التى قال عنها الزمخشرى: [معناه كثرة الرؤية]، فيكون المعنى: إن الله يعلم ما يحيد به مشركو مكة عن الحق عندما يقولون بأن هناك بشراً يعلم محمداً ما يقول ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ فمن أين لأعجمى أن يأتى ببلاغة القرآن؟! قال محمد الغزالى: [قالوا إن شخصاً من أهل الكتاب، أو من خبراء الوحى القديم هو الذى يُلقن الرسول ما يجىء به! من هذا الشخص؟ وما الذى استبقاه فى دائرة الظل فلم يعلم به أحد؟ الإجماع معقود على أن القرآن معجزة اللسان العربى، فكيف انبجست (تفجرت) بلاغته من فم أعجمى له بالوحى القديم علاقة قوية أو ضعيفة؟ ولماذا لم يتحدث هذا الشخص ويميط اللثام عن نفسه وعمله؟ ويعين قريشاً فى عداوتها لمحمد؟] إن الذين يجحدون بآيات الله، لا يهديهم الله، وينتظرهم ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إنما يكذب على الله من يجحد آياته ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾.

***

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾

تتحدث الآيات عن المرتد، الذى طاب قلبه وانشرح بالكفر بعد أن عرف الإيمان، وتنص على أن جزاءه غضب من الله وعذاب عظيم؛ لأنه استحب متع الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، أولئك الذين جحدوا آيات الله، فجزاهم فى الدنيا بأن منعهم من استخدام قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، ليعيشوا فى غفلة، وهم الخاسرون فى الآخرة. ويستثنى رب العزة من أُجبر على التلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وقصة عمَّار (رضي الله عنه) معروفة فى كتب السيرة، وقال له الرسول (ﷺ) «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» وقد جاء فى الحديث الشريف «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» رواه ابن ماجه.

***

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(١١١) ﴾

إن أولئك الذين أكرهوا على قول السوء، وهاجروا بعدما فتنهم أهل مكة عن دينهم، ثم جاهدوا فى سبيل الله، وصبروا على ما لا قوه فى ذلك، سيجدون يوم الحساب ربّا غفوراً رحيمًا. قيل إن الآية نزلت فى عمَّار، وقيل فيه وفى غيره، وهى تعم كل من تعرض للفتنة مثلهم، ثم هاجر فى سبيل دينه.

***

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) ﴾

وضرب الله مثلاً بقرية عاشت فى أمان واطمئنان وسعة من الرزق الذى يأتيها من كل مكان، ولكنها بدلاً من أن تحمد وتشكر، جحدت نعم الله عليها ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ

﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ لتعود إلى رشدها، ثم امتن الله عليهم بأن بعث فيهم رسولاً منهم، فكذبوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر بسبب ظلمهم، وفى هذا المثل إنذار لأهل مكة.

* * *

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) ﴾

أباح الله لنا الأكل من الرزق الحلال الطيب كيفما شئنا، على أن نشكر لله هذه النعم ونعبده حق عبادته، ولا نقرب المحرمات من الطعام مثل الميتة، والدم ولحم الخنزير، وما لم يذكر اسم الله عليه ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ دعته الضرورة إلى تناول أىّ من المحرمات، فليأكل ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ ﴾ غير متجاوز ما ينقذه من الهلاك، متعديًا إلى التلذذ بالطعام، وملء البطن، وفى هذا قال الفقهاء: الضرورات تقدر بقدرها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

* * *

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴾

لا تحللوا ولا تحرموا كذبًا وافتراءً على الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴾ متاعهم قليل فى الدنيا، وعذابهم طويل أليم فى الآخرة بتجرئهم على التحليل والتحريم باسم الله. لذلك كان أئمة الفقهاء يخشون أن يقولوا فى آرائهم وفتاويهم: حلال وحرام إلا فيما فصله الله، وعدا ذلك يقولون أحب، أكره، أرى، لا أرى.

* * *

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾

وعلى اليهود حرم الله عليهم ﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ فى سورة الأنعام الآية ١٤٦: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾، ثم يقول الله:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ فيما حرمنا عليهم ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فاستحقوا ذلك التحريم ـ كما جاء فى سورة النساء ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [١٦٠]ـ أما الذين ارتكبوا المعصية بجهل، ثم تابوا توبة خالصة، وأصلحوا أعمالهم، فإن الله لأولئك غفور رحيم.

* * *

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ إبراهيم (ﷺ) يزن إيمانه إيمان أمة، وقيل أمة تعنى معلمًا للخير، لماذا؟ لأنه دائمًا خاشع مطيع لله قائم بأمره ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً معرضًا عن دين قومه المشركين إلى الدين الحق، كما كان ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ لذلك ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ اختاره ربه واصطفاه وجعل من ذريته الكثير من الأنبياء ﴿ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الإيمان والتوحيد الخالص لله الذى يجعل صاحبه يعمل الصالحات ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ الرسالة والعمل الصالح والأهل الطيبين ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ جزاء عمله، واستجابة لدعائه عندما ناشد ربه ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣].

* * *

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾

وبعد إبراهيم بقرون عديدة، أوحينا إليك يا محمد أن اتبع ملة إبراهيم الذى رفض الشرك، وأقام التوحيد الخالص ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ فُرض السبت على الذين اختلفوا فى تحريم العمل فيه، وسيحكم الله يوم القيامة بينهم فيما اختلفوا فيه.

* * *

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾

هذه الآيات تمثل منهج الدعوة إلى الله . . فالله ـ تعالى ـ يأمر رسوله الكريم ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ :

أولاً : بالحكمة : الحكمة هى حسن تقدير الأمور وحسن التصرف فيها ، والحكمة فى الدعوة هى حسن اختيار المدخل للدعوة ، وحسن اختيار الأفكار والكلمات ، وحسن توقيتها وتوجيهها للمستمع ، وقال الزمخشرى : [بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة] ، وقال الشوكانى : [بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وقيل هى الحجج القطعية المفيدة لليقين] ، وإذا أخذنا بقول الشافعى عن الحكمة ، صار المعنى : ادعوا أيها المؤمنون إلى سبيل ربكم باتباع سنة رسوله (ﷺ) فى الدعوة ، ونعم السنة ونعم الطريقة .

ثانيًا : والموعظة الحسنة : قال الزمخشرى : [التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها . ويجوز أن يريد القرآن ، أى : ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة] ، وقال الشوكانى : [المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التى يستحسنها السامع ، وتكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها . قيل وهى الحجج الظنية] ، وقال البيضاوى : [الأولى (الحكمة) لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق ، والثانية (الموعظة الحسنة) لعوامهم] .

ثالثًا : وجادلهم بالتى هى أحسن : واتبع أحسن طرق المجادلة ، فأنت تريد أن تكسب من تجادله ، وليس أن تهزمه ، وفى ذلك قال الشافعى إنه ما جادل أحدًا إلا وأحب أن يظهر الحق على لسان صاحبه الذى يجادله .

والله يعلم من يصر على الضلال والإضلال ، ومن يهتدى ، ولئن عاقبتم من أصابكم بالضرر ، فأنزلوا به ضررًا مماثلاً ، ولا تتجاوزوا ذلك ولا تعتدوا ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ قال بعض المفسرين : إنها نزلت بعد أُحد ، وبعد التمثيل بجثث المسلمين ، فقال بعضهم ليمثلن بجثثهم ، ثم يأمر خالق الأكوان رسوله بالصبر عما لاقاه ، وما سيلاقيه ، وألا يضيق صدره بما تفعله قريش وغيرها ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ وحسبه أن يكون الله معه هو والمتقين ، وهم الذين أحسنوا .

* * *